Journal Of the Iraqia University (73-3) January (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

صناعة الورق والورّاقة العصر العباسيّ نموذجاً

ريما مصطفى شمّا- طالبة دكتوراه-
جامعة الجنان_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية - لبنان
المشرف : أ.د. جان توما – أ.د.نينا أيوب

الملخص:

ترتكز هذه الدراسة على الدور الذي لعبه العرب في تطوير صناعة الورق لا سيّما في العصر العباسي، الذي يعتبر العصر الذهبي في تاريخ الحضارة الاسلاميّة. حيث انتشرت في هذا العصر، فضلًا عن الثّقافة العربيّة ثلاث ثقافات كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس، وهي: الثّقافة الفارسيّة، الثّقافة الهنديّة والثّقافة اليونانيّة. ورافق ذلك نهضة علميّة وفكريّة، فنشطت حركة النقل والترجمة، وانتشرت المدارس والمكتبات وعلى رأسها "بيت الحكمة"، الأمر الذي استلزم وجود أدوات مهمّة للنقل والتدوين، والورق من أهمّ هذه الأدوات، فاهتّم العرب بتطوير الورق حتّى بات صناعة قائمة بذاتها.

الكلمات المفتاحيّة: الورق، الوراقة، الورّاقين ،النقل، التدوين.

Paper and paper industry, the Abbasid era as a model

Rima Mostapha Chamma - PhD student
Jinan University – Lebanon

Abstract:
This study is based on the role played by the Arabs in developing the paper industry, especially in the Abbasid era, which is considered the golden age in the history of Islamic civilization. In addition to Arab culture, three cultures spread in this era that had the greatest impact on people's minds: Persian culture, Indian culture, and Greek culture. This was accompanied by a scientific and intellectual renaissance. The movement of transmission and translation became active, and schools and libraries spread, led by the House of Wisdom, which required the presence of important tools for transmission and codification, and paper was one of the most important of these tools. The Arabs were interested in developing paper until it became an independent industry.
Keywords: Paper, paper industry, transportation, blogging.

أهميّة الدراسة:

تكمن أهميّة هذه الدراسة في تسليط الضوء على الدور الذي لعبه العرب في تطوير أداة مهمّة من أدوات التدوين والاتصال، ألا وهي "الورق" ، لا سيّما في العصر العباسي. فللعرب فضل كبير في تطوير هذه الصناعة ووضع أسسها وتصديرها للغرب مع تقهقر الدولة العباسيّة. لكنّ صناعة الورق ،على أهمّيتها، لم تحظَ باهتمام الباحثين، فنجد أنّ جلّ الدراسات اهتمّت بالتحدث عن التبادل الثقافي وما تبعه من تطور في حركة النقل والترجمة، وبانشاء المدارس والمكتبات وغير ذلك، مع إغفال هذه الصناعة التي آزرت هذه الثورة الفكرية وهذا التطور الحضاري في تلك الحقبة التي أطلق عليها "العصر الذهبي"، والتي كان لا بدّ من توفّرها لكي يتسنّى للمهتمين النقل والنسخ والتدوين. فكان هدف الدراسة تناول مراحل تطوير هذه الصناعة.الكلمات المفتاحيّة: المتنبّي، الطموح، الكبرياء، الأنا، العبقرية، العدوانية.

المقدّمة:

مع مجيء الإسلام، تغيّرت حياة النّاس في مختلف الميادين: الدّينيّة، الاجتماعيّة، السّياسيّة ولا سيّما العلميّة، وخصوصًا أنّ الإسلام قد حضّ على العلم، فيقول تعالى: ﴿ **اِقرأ باسم ربّك الذي خلق** ﴾[1]، ﴿**وقلْ ربّي زدني علمًا** ﴾[2]، أضف إلى ذلك ما نُسِب إلى الرسول الكريم (عليه الصّلاة

والسّلام) من أقوال: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللّحد"، و" العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". لكنّ الدّين بقي هو المحور الأساسي للحياة حتى أواخر الدولة الأمويّة. ومع مجيء الدولة العباسيّة، بدأت الحال تتبدّل، وأخذت العلوم الدّنيويّة تظهر وتتجلّى بشكل واسع[٣]، ويقول د. أحمد رمضان أحمد: "وقد أذكى الإسلام جذوة المعرفة في نفوس العرب، واستحثّهم على طلب العلم والتّعليم، حتّى أنّ العرب أخذوا يحيطون بما لدى الأمم الّتي فتحوها من ثقافات مختلفة، ثمّ مضوا بعد ذلك ينقلون ما تعلّموه إلى لغتهم، فنهض التّعليم نهضة واسعة"[٤]. وكان من نتيجة ذلك، أن ازدهرت حركة النّقل والتّرجمة، ولعلّ السّبب الرّئيسيّ في ازدهارها هو انتقال مركز الخلافة من الشّام إلى بغداد ملتقى الحضارات.

فقد أصبحت بغداد في مدّة زمنيّة بسيطة أهمّ مركز للحضارة والثّقافة في الدولة الإسلاميّة، بل في العالم كلّه. وكان لهذا الانتقال من الشّام إلى العراق أثر كبير من النّاحية العقليّة إذ تداولت عليه دول خلّفت فيه مدنيّتها وثقافتها، وسبب الانتقال، أنّ دمشق (عاصمة الأمويين) كانت مُنتحية ناحية الغرب، بينما العراق يقع في وسط الدولة الإسلاميّة الممتدّة من البحر المتوسّط إلى الهند، "فبغداد كانت قريبة من خراسان، قريبة من الشّرق، بعيدة عن الرّوم، وتشكّل صلة وصل بين الفرس والأمم السّاميّة، وهي في العراق حيث عواصم الممالك القديمة مثل بابل والمدائن"[٥].

هنا وجد العرب أنفسهم أمام دولة مترامية الأطراف، امتزجت فيها شعوب من كلّ جنس ولون، فأخذوا من الشعوب ما يحتاجون إليه من الحضارات الّتي تعرّفوا عليها، التي لا تتعارض مع المعتقد الديني. من هنا اهتمّ العرب بنقل الثّقافات الأجنبيّة إلى العربيّة، فكانت حركة النّقل والتّرجمة نتيجة للضّرورة الحياتيّة، ونعني بالضرورة الحياتيّة ما يساعد على تنظيم أساليب العيش، وتأمين حياة أفضل، وزيادة السّيطرة على الطّبيعة للإفادة منها بأقصى طاقة ممكنة[٦].

وعلى الرغم من أنّ اتّصال العرب بالثّقافات الأجنبيّة كان قد بدأ منذ العصر الأموي، إلاّ أنّ الاتصال بقي في حدود ضيّقة، فلم تتمخّض عنه آثار عميقة في الفكر الإسلاميّ، ولا في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة. لكنّ هذا الاتصال أخذ يتّسع ويأخذ مجراه في العقليّة العربيّة والفكر الإسلاميّ منذ العصر العبّاسيّ وبصفة خاصّة في عصر المأمون، حين أحسّ النّاس في بنائهم الجديد أنّهم بحاجة إلى هذه الثّقافات الّتي أخذت بواكيرها تغزو عقولهم، وتغمر أفكارهم منذ بدأت حركات التّرجمة المنظمّة".

لقد انتشرت في هذا العصر، فضلًا عن الثّقافة العربيّة ثلاث ثقافات كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس، وهي: الثّقافة الفارسيّة، الثّقافة الهنديّة والثّقافة اليونانيّة. كما اشتهرت في الشّرق، قبل ظهور الإسلام وبعده، مدن كثيرة، كانت منبعًا للثّقافة اليونانيّة، من أشهرها: جنديسابور، حرّان والإسكندريّة. كما تميّزت مدارس ثقافية وفكرية مهمّة كانت وراءها الحركة السّريانيّة وهي : نصيبين، الرّها وإنطاكية، وهذه المدارس لعبت دورًا كبيرًا في عملية الترجمة والتعريب.

لعبت حركة الترجمة والتعريب في مدارس ذلك العصر دورًا مهمًّا فقد بات ظاهرًا مثلًا تأثّر العرب بالفلسفة والمنطق إذ أصبح أشدّ وأعمق، كما صبغت العلوم المترجمة تفكيرهم بصبغة خاصّة، إضافة إلى التغيّر الحاصل والمستجدّ الذي طال مناهجهم في البحث والفهم تغييرًا واضحًا، ما ترك عند العرب طاقة جدليّة كبيرة، استطاعوا من خلالها الدّفاع عن آرائهم وعن قضاياهم الدّينيّة.

الفضل في ذلك لا يعود فقط إلى مجرّد مدارس، أو مكتبات، أو مراكز بل إلى إرث إنسانيّ قام به نَقَلَة عملوا، ليل نهار، على إحداث نهضة في مجال الترجمة والتعريب من اللغات كلّها وإليها، في محاولة لإحداث صدمة فكريّة تقوم على المناقشة والحوار، وصولًا إلى النهضة المرجوة..

وقد توسّعت حركة الترجمة وازدهرت في أدوار ثلاثة: من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرّشيد (١٣٦ – ١٩٣ هـ)، ومن عهد المأمون أي من سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠هـ أي حتّى منتصف القرن الرّابع"، والدور الذي أتى بعد هؤلاء، أي من بعد عام ٣٠٠هـ[٧].

وبرزت مجموعة كبيرة من النّقلة المشهورين من السّريان والمسلمين والفرس والهنود، مثل حنين بن اسحق وقسطا بن لوقا، اللذان لعبا دورًا مهمًا في تطوير حركة الترجمة، إذ أسسا لها، وسار على نهجهما العديد من المترجمين، فحنين امتاز بالتّرجمة من اليونانيّة إلى العربيّة والسّريانيّة، ولبراعته نصّبه المأمون رئيسًا على بيت الحكمة، ثمّ ترجم للمعتصم والواثق والمتوكّل.

كذلك "ترجم قسطا قطعة من الكتب القديمة، وكان بارعًا في علوم كثيرة، منها: الطّبّ والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى، فصيحًا باللّغة اليونانيّة، جيّد العبارة بالعربيّة. كما كان فصيحًا باللّغة السّريانيّة، جيّد النّقل"[٨]. وقد نقل عددًا من الكتب وأصلح منقولات كثيرة. دخل بلاد الرّوم، وجمع عددًا من التّصانيف القديمة وعاد إلى الشّام، ويقول المستشرق البريطاني أوليري De Lacy O'Leary أنّه علّم في بلاد الإغريق

ولذا امتاز بالتّرجمة. وقد استُدعِي إلى العراق ليعمل في التّرجمة، ويعتبر" قسطا من فلاسفة المترجمين، ومن مترجمي بيت الحكمة المشهورين، وقد عمل بمعيّة حنين بن اسحاق"[٩]..

هذه الحركة التي كان لها رجالاتها وقادتها لم تكن لتتوسّع وتصل إلى ما وصلت إليه من رفعة في العصر العباسيّ لولا ما جادت به خزينة المال في الدولة، وما ذهب إليه الخلفاء من عناية وتشجيع للعاملين في هذا المجال.

ولكي يتسنّى للنّاس النّقل والتّدوين كان لا بدّ من توافر أدوات مهمّة بين أيديهم، كالقلم والمحبرة والمسطرة والورق وغير ذلك من الأدوات، غير أنّنا سنخص بحثنا هذا بصناعة الورق والوراقة، التي آزرت هذه الحقبة الزمينة وكان وجودها ضروري لدعم حركة النقل والترجمة.

أوّلاً: تاريخ صناعة الورق

يقول صاحب الفهرست: "يقال أوّل من كتب آدم على الطّين، ثمّ كتبت الأمم بعد ذلك برهة من الزّمن في النّحاس والحجارة للخلود، هذا قبل الطّوفان. وكتبوا في الخشب وورق الشجر للحاجة في الوقت، وكتبوا في التوز الذي يعلا به القسي أيضاً للخلود، ثم دُبغت الجلود فكتب الناس فيها، وكتب أهل مصر في القرطاس المصريّ ويعمل من قصب البردي"[١٠]، أمّا العرب فقد "كتبوا في الجلود المدبوغة وأكتاف الإبل واللّخاف وهي حجارة بيض رقاق"[١١]، وفي العُسُب وهو "جريد النخل، والكرب وألواح الخشب، والمهارق وهي صحف بيضاء من القماش، والرقوق والأدم"[١٢]، متأثّرين بذلك بالفرس لقربهم منهم. واستمرّ ذلك حتّى بِدء الدعوة الإسلاميّة فكانت الآيات القرآنية تُكتب في اللّخاف والعسب، وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه، أنّه قال عند جمعه القرآن:" فجعلت اتتبّع القرآن من العسب واللّخاف[١٣]. غير أنّ الجلود كانت أكثر استعمالًا من غيرها من المواد خصوصًا في صدر الإسلام، وأصبحت للجلود العربيّة التي كانت تتّخذ للكتابة خصوصيتها وصفاتها الجيدة، وكانت تصنع من جلود الإبل والغنم والمعز والغزلان وحمر الوحش والظباء، ومن أشهر أنواع الجلود التي استعملت في الكتابة، الرقوق وهي "نوع متطور من الجلود في الصنعة وأسلوب الدباغة والصقل، فكانت رقيقة ليّنة خفيفة آية في الدقة والجمال، وأصبحت مادّة رئيسيّة في الكتابة"[١٤]. ويقول ابن خلدون:"وكانت السجلّات أوّلًا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانيّة والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرِفهِ وقلّة الرسائل السلطانية والصكوك، مع ذلك فاقتصروا على الكتابة في الرقّ تشريفًا للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحّة والإتقان"[١٥]. ونظرًا لجودة هذا النوع من الورق" فقد أجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرقّ لطول بقائه"[١٦]. وقد اشتهرت في صناعة الرقوق في تلك الفترة مدن عربيّة كصنعاء وصعدة ونجران والطائف، ثمّ انتقلت "أحدث أصول الدباغة إلى الكوفة وتمّ إتقانها وتحسينها وفاقت في صناعتها الرقوق التي كانت تصنع في المدن الأخرى"[١٧]. وقد استخدم المسلمون أيضًا ورق البردي المصريّ أو القراطيس وهو نوع من الجلد الأبيض _غالي الثمن_ لذلك كان يقتصد في استخدامه، حتى في الدواوين الإداريّة، وعندما ندقّق النظر في الوثائق المحفوظة في المتاحف الأثريّة، نرى "أنّ وثائق هامة مذيلة بإمضاء الحكام قد دوّنت على قصاصات من ذلك البردي"[١٨]. وقد كثر "استعمال هذه الأوراق بعد فتح مصر عام ٢٠ للهجرة، وكثر استخدامها في الفترة الأمويّة وبداية الفترة العباسيّة لا سيّما في العراق"[١٩].

ثانيًا: تطور صناعة الورق في العصر العباسي:

لقد اهتم العباسيون بصناعة الورق وأنشأوا لهذه الصناعة مصانع في مدنٍ عدّة، وجلبوا لها الأساتذة والصّناع من مصر التي اشتهرت "بصنع الورق من نبات البرديّ منذ القديم والذي استمر مستخدمًا في صناعة الورق حتّى العصر العباسي الثاني"[٢٠]. ويذكر أنّ دربًا في بغداد، كان يُعرف بدرب القراطيس أو درب أصحاب القراطيس، ذكره أكثر المؤرخين، "كما لقّب بعض الأعلام بالقراطيسي وأغلبهم من بغداد أو ممّن قدم إليها وعاش فيها"[٢١]. وقد "استمر استعمال القراطيس حتى نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع"[٢٢]. إلّا أنّ ظهور ورق الكاغد في النصف الثاني من القرن الأوّل الهجري، واتّساع حركة التأليف والترجمة التي نشطت مع الفتوحات الإسلاميّة في مختلف حقول المعرفة خصوصًا في أوائل الدولة العباسية، وما تبعها من كثرة المؤلّفات وحرص الناس على تناقلها، أضف إلى ذلك ارتفاع أسعار الرقّ والبردي وصعوبة صنعها وعدم توافر المواد الأوليّة بالنسبة لصناعة القراطيس "التي كانت تصنع في مصر وتجلب إلى العراق، كل ذلك أدّى إلى ظهور الحاجة إلى صناعة الورق"[٢٣] الذي تعرّف عليه المسلمون "إثر فتحهم سمرقند عام ٧١٢ م، إذ أخذوا عن المسيحيّين صناعة استخراج عجينة من الكتّان وغيرها من النباتات ذات الألياف، ثمّ تجفيف هذه العجينة بعد صنعها رقائق رفيعة"[٢٤]. وقد اشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتّى قيل "إنّ كواغد سمرقند عطّلت قراطيس مصر"[٢٥]. وفي هذا الصدد يقول الثعالبي:"ومن خصائصها الكواغد التي عطّلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها لأنّها أهمّ وأحسن وأرقّ" [٢٦].

وفي القرن الرابع الهجري "انتقل الكاغد من الصين إلى العالم الإسلامي إثر موقعة أطلح التي جرت بين المسلمين وأمراء الترك وحلفائهم الصينيّين، على ضفاف نهر طراز سنة ١٣٤هـ / ٧٥١م والتي أسر فيها أكثر من عشرين ألف رجل منهم صناع الورق الصينيون، فهؤلاء الأسرى الصينيون لا بدّ وأن يكونوا قد أسروا في تلك الحادثة وجيء ببعضهم الى بغداد، وبعد تلك الفترة ظهرت صناعة الورق ببغداد، وقد "افتتح أول مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام ٧٩٤م (١٧٨هـ) على يد الفضل بن يحيى وزير الخليفة هارون الرشيد"[٢٧]. ويقول ابن خلدون: " ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرقّ عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفًا لمكتوباتهم السلطانيّة والعلميّة وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت"[٢٨]. وقد نقل العرب صناعة الورق إلى أوروبا في أواخر العصور الوسطى عن طريق الشام، فأطلق عليه الأوروبيون اسم "الصحائف الدمشقيّة"، فوصلت إلى صقلية وإسبانيا ومنهما إلى إيطاليا وفرنسا. وقبل هذا نجد الورق مستخدمًا في بلاد الصين منذ عام ١٠٥م، ثم نجده في مكة سنة ٧٠٧، وفي مصر سنة ٨٠٠، وفي إسبانيا سنة ٩٥٠، و ...[٢٩].

ثالثًا : الورق والوراقة والابداع العربي

لم يكن الإنسان العربي ذلك الإنسان الذي يأخذ عن غيره ويطبّق فقط، بل كان مبدعًا وخلّاقًا، يأخذ فيطوّر ويضيف، فصحيح أنّه أخذ عن الصينيّين صناعة الورق، إلّا "أنّه طوّر في هذه الصناعة، فالورق الصينيّ كان يصنع من الحرير والكتان، وهذه المواد كانت غالية الثمن في البلاد العربية لا سيما في العراق، الأمر الذي دعا العرب إلى استخدام مواد بديلة ومتيّسرة لديه كالألياف والقطن والقنّب والخرق البالية، وهنا يبرز دور الإبداع والإبتكار في العقلية العربية"[٣٠] ، حتى "إنّ جابر بن حيّان الكوفي تمكّن من صنع ورق غير قابل للاحتراق[٣١]. ومن الجدير بالذكر أنّ الورق البغداديّ كان من أجود الأنواع، وفي هذا الصدد يقول القلقشنديّ: "وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغداديّ، وهو ورقة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدًّا، ولا يكتب فيه في الغالب إلاّ المصاحف الشريفة، وربّما استعمله كتّاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها"[٣٢]، و"يأتي بعده الورق الحمويّ فالشّاميّ ثمّ المصريّ، وهناك صنف يعرف بالفويّ صغير القطع، خشن غليظ خفيف الغرف، لا ينتفع به في الكتابة، يتّخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك"[٣٣]، وهو أردأ أنواع الورق. ونظرًا لوفرة الورق في القرنين الثالث والرابع الهجريين فقد رخص ثمنه، وتمّ استبدال كلّ سجلاّت الدولة بالكاغد البغدادي أيّام الرشيد. ويشير إلى هذا الأمر هاملتون جيب Hamilton Gibb فيقول: "وقد أسّس أوّل مصنع للورق في بغداد في عهد هارون الرشيد، وما حلّ أواخر القرن الثاني حتّى وجد الورق بوفرة ورخص الثمن"[٣٤]. ونتيجة لتصنيع الورق في بغداد وسهولة الحصول عليه وتداوله، ظهرت صناعة الوراقة التي تفرّغ لها قوم عرفوا في كتب التراث العربي باسم الورّاقين[٣٥]. وقيل أنّ أوّل من أنشأ الورق مالك بن دينار[٣٦]، ويعرّف ابن خلدون الوراقة بقوله: "وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكُتُبية والدواوين"[٣٧]، أمّا الورّاق فقد عرّفه السمعاني بقوله: "هو مّن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال "لِمن يبيع الورع وهو الكاغد ببغداد الورّاق أيضًا"[٣٨]. وقد ذكر" من أولئك الوراقين أحمد بن محمد ابن أيوب الورّاق من أهل بغداد في أيّام الرشيد، وابراهيم بن مكتوم الورّاق من أهل سامرّاء"[٣٩] وغيرهما. وقد كثرت في بغداد حوانيت الورّاقين حتّى إنّ اليعقوبي يقول إنّه كان في بغداد على أيامه أكثر من مائة بائع للكتب"[٤٠]، وقد انتشرت بسرعة في العواصم والبلدان المختلفة وحفلت كلّ مدينة بعدد وافر منها. ولعلّ" باستطاعتنا الربط بين أسواق العرب في الجاهليّة وحوانيت الورّاقين، ففي تلك الأسواق كان الناس يجتمعون بدافع التجارة ولكنّهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحيّة الأدبيّة فينشدون الأشعار، ويعقدون المناظرات وغير ذلك، ودكاكين الورّاقين فتحت في الأصل لأعمال تجاريّة، ثمّ صارت مسرحًا للثقافة والحوار العلميّ، عندما أمّها المثقفون والأدباء واتّخذوا منها مكانًا لاجتماعاتهم وأبحاثهم"[٤١]، غير أنّ هناك اختلافًا بسيطًا يوجد بينهما، وهو أنّ الاجتماعات في أسواق الجاهليّة كانت موسميّة، أمّا في الحوانيت فقد كانت يوميّة.

لكن انتشار الورق لم يكن هو العامل الوحيد لانتشار هذه الصناعة، إنّما "كان لحركة التأليف والترجمة وازدهارهما، كما ذكرنا آنفًا، وظهور مجالس الإملاء، التي نتجت عنها كثرة التأليف، لكون بغداد عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الإسلامية"[٤٢]، دور بارز في هذا المضمار، ويشير ابن النديم إلى أنّ جودة الخطّ وصحّة النقل ودقّة الضبط، كانت شروطًا أساسيّة للنجاح في صناعة الوراقة، ونذكر على سبيل المثال: أحمد بن محمد القرشي الذي يصفه ابن عساكر بـ "صاحب الخط المشهور"[٤٣]، وعلي بن هلال المعروف بـ "ابن البواب" الذي سمت به همّته وكفايته حتّى رُدّ إليه أمر مكتبة بهاء الدولة بن عضد الدولة"[٤٤]، و"لم تكن تلك الحوانيت مجرد دور للنسخ وإنّما كانت مجالس للعلماء والشّعراء وملتقى للطبقات المثقفة"[٤٥]، والسبب في ذلك يعود إلى "أنّ بائعي الكتب لم يكونوا مجرد تجّار ينشدون الربح المادي

وإنّما كانوا ـ في أغلب الأحايين ـ أدباء ذوي ثقافة يسعون للّذة العقلية من وراء هذه الحرفة"[٤٦]. وقد "كثر الورّاقون ومعظمهم من الشخصيات اللامعة، كابن النديم صاحب الفهرست الذي يدلّ على مبلغ علمه واطلاعه وإلمامه ما صنّف من الكتب العربية" ...[٤٧]، ويشير إلى أهمية هذا الكتاب بقوله: " وهو "من أهمّ المصادر التي بين أيدينا لاستقاء المعلومات المتعلّقة بفاتحة الأدب"[٤٨]، وأبي حيان التوحيدي[٤٩] الذي كان من أشهر ورّاقي القرن الرابع وأوسعهم علمًا، وعلي بن عيسى المعروف بابن كوجك[٥٠] وكان ورّاقًا وأديبًا فاضلًا، والجهنيّ وغيرهم"[٥١].

ومن المثير للانتباه، أنّ النشاط العلميّ في الدكاكين لم يقف على حوانيت الوراقين فقط، "بل انتقل منها إلى غيرها من محال البيع والشراء، ومنها الحانوت المتواضع الذي كان أبو العتاهية يبيع فيه الجرار والفخار، إذ كان يتوافد الأحداث والمتأدّبون فينشدهم أبو العتاهية أشعاره ثمّ يأخذ هؤلاء ما تكسر من الخزف فيكتبونها عليها" [٥٢]. وكان الورّاقون ينسخون الكتب الهامّة ويعرضونها للراغبين فيها، ويتقاضون على ذلك أجرًا متواضعًا متوسّطه دينار عن كلّ كتاب.

والراجح أنّ الوراقة كانت حرفة مريحة، وأنّ أسعار النسخ كانت تتزايد وترتفع بمرور الزمن، ففي مطلع القرن الثالث كانت العشر ورقات تنسخ بدرهم، على أنّ أسعار النسخ ما لبثت أن ارتفعت في غضون هذا القرن، فبلغت خمس ورقات للدرهم، كالذي يروى من أنّ أبا العباس الأحول كان يكتب مائة ورقة بعشرين درهمًا، وفي القرن الرابع نشطت سوق الوراقة وارتفعت الأسعار ارتفاعًا ملحوظًا حتّى أصبحت الورقة تنسخ بدرهم ويقول ابن شهاب العكبري: "كسبت من الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية". ومع ذلك كانت هناك نغمة التأفّف والشكوى التي كانت تصدر عن بعض الوراقين كابن حيّان التوحيدي الذي كان يضيق بالوراقة حتّى أنّه ترك بغداد ورحل إلى الصاحب بن عبّاد "ليتخلص من حرفة الشّوم" على حدّ تعبيره"[٥٣].

وبما أنّ كلمة التجليد اقترنت وتلازمت مع النسخ، كان لا بدّ من الإشارة بشكل سريع إلى التجليد، فقد بدأ بسيطًا عند المسلمين، ولكنّه تطوّر بسرعة عجيبة حتّى أصبح فنًّا فيه دقّة وجمال، ويحدّثنا "ابن النديم أنّ الكتب كانت تجلّد بجلد مدبوغ وهو شديد الجفاف، إلى أن ظهر دبغ الكوفة وفيه لين، ثمّ ظهر التذهيب والزخرفة والتزويق، فوصل التجليد عند المسلمين إلى القمّة وأصبح آية في الإبداع والجمال"[٥٤].

الخاتمة:

هكذا بدأت صناعة الورق بسيطة، ثمّ بفعل الفتوحات والتمازج وانصهار الأمم تطوّرت هذه الصناعة الثمينة، لتزدهر ازدهارًا لا مثيل له في عصر الرشيد حيث أنشئ أول مصنع للورق في عهده، فاستغنى الناس عن استعمال الرقوق والقراطيس ذات الثمن الغالي والمعرضّة للتلف والتزوير، ويذكر القلقشندي: "وبقي الناس على ذلك إلى أن ولّي الرشيد الخلافة وقد كثُر الورق وفشى عمله بين الناس، أمر ألاّ يكتب الناس إلاّ في الكاغد لأنّ الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة وتقبل التزوير، خلاف الورق فإنه متى مُحِي منه فسد، وإن كُشِط ظهر كشطه"[٥٥]. ومن ثمّ ازدهرت صناعة الوراقة، التي كانت باب رزق لكثير من الناس ولا سيّما الطلاب، إذ كانوا يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات وبيعها لتجار الكتب[٥٦]، وقد كثرت حوانيت الورّاقين وباتت مغدىً ومراحًا للطلاب والعلماء يتذاكرون فيها ويتناقشون، فعلى سبيل المثال كان الجاحظ ـ كما حدّث ابو هفان الراوية ـ يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر[٥٧]، وقد وصف ابن الجوزي سوق الوراقين ببغداد في زمنه بقوله: "إنّها سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء". ووصف المقريزي سوق الكتبيين بمصر: "وما برح هذا السوق مجمعًا لأهل العلم يتردّدون عليه" [٥٨].

هذا الاهتمام الكبير بالورق والوراقة ليس مستغربًا على العرب لما يكنّونه للكتب من تقدير وإجلال، ويكفي أن يتحدّث العربيّ عن الكتاب" حتى ينخدع القارئ ويظنّ أنّه يتحدث عن صديق نما ودّه وزاد إخلاصه، أو حبيب طال بعده وكثر الشوق إليه"[٥٩]. "لعلّنا لا نبالغ إذا قلنا أنّه في هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة الحياة الثقافيّة"[٦٠]. ولمن المؤسف أنّنا وصلنا اليوم وبفعل التّقدّم التكنولوجي الهائل إلى تحويل هذا الورق إلى مجرد ورق افتراضيّ ضمن عالم افتراضيّ فرضه علينا تقدّم العصر نحو الرقميّة، ففقدنا هذه اللذة بتحسّس الأوراق وهذه المتعة في استنشاق رائحتها التي تحملنا ضمن طيّات كتاب ما إلى عالم آخر يؤنس سهرتنا وأوقات فراغنا، فما من متعتة تضاهي متعة التقاط كتاب بين أيدينا ومداعبة أوراقه، ولكنّ تقدمّ العصر يحتّم علينا المواكبة والانجراف مع التيار نحو الكتاب الرقميّ طالما أنّ الهدف الأساسيّ ما زال نقل المعرفة وتبادل الثقافات.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الكتب العربية:

١ – ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون. دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط ٥، ١٩٨٢
٢ – ابن النديم : الفهرست . دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، لا ط ، ١٩٧٨
٣ – أحمد ، أحمد رمضان : حضارة الدولة العباسية . الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ، ط ١٩٧٨
٤–أمين، أحمد : ضحى الإسلام. مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٣.
٥ – أوليري: مسالك الثّقافة الإغريقيّة إلى العرب. ترجمة تمّام حسّان، دار عالم الكتب، الرياض، ٢٠٠٢.
٦ – أيوب ، ابراهيم : التاريخ العباسي السياسي والحضاري . الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٩
٧– جيب ، هاملتون : دراسات في حضارة الإسلام . ترجمة احسان عباس ومحمد يوسف نجم ومحمود زايد، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٩
٨ – الحلوجي ، عبد الستار : المخطوط العربي منذ تشأته الى آخر القرن الرابع الهجري . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض ، لا ط ، ١٩٧٨
٩ – ديورانت، ول: قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران . ج ١٣–١٤ ، لا نا، لا ط ، لا ت .
١٠ – شلبي، احمد: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٨٢
١١ – القلقشندي ، أحمد بن علي (٨٢١هـ /١٤٨١م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا . شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين . ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٧
١٢ – النقشبندي ، أسامة بن ناصر : حضارة العراق . نخبة من الباحثين العراقيين . ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢

هوامش الدراسة:

[١] – سورة العلق : الآية ١
[٢] – سورة طه : الآية ١٤٤ .
[٣] – أحمد رمضان أحمد: **حضارة الدولة العباسيّة الجهاز المركزيّ للكتب الجامعيّة والمدرسيّة والوسائل التعليميّة** ، ١٩٧٨م ص ١٣٥
[٤] – المرجع نفسه ص ١٣٥
[٥] – أمين، أحمد: **ضحى الإسلام** . ج١ ، ص ٢٦٥.
[٦] – المرجع نفسه، ص ٦٧–٩٦.
[٧] – أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**. ج١ ، ص ٢٦٤.
[٨] – ابن النّديم: **الفهرست**. ص ٤١٠.
[٩] – عبد الباقي،أحمد: **معالم الحضارة العربيّة**. ص ٢٨٣ .
[١٠] – ابن النديم : **الفهرست** ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ط ١٩٧٨م
[١١] – القلقشندي : **صبح الاعشى** ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٨ ، ص ٥١٥ .
[١٢] – اسامة ناصر **النقشبندي** : حضارة العراق ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٣٩ .
[١٣] – القلقشندي : **صبح الاعشى** ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٨ ، ص٥١٥ .
[١٤] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٣٩ .
[١٥] – ابن خلدون : **المقدمة** ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط ٥ ، ١٩٨٢ . ص٤٢١
[١٦] – القلقشندي : **صبح الاعشى** ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٨ ، ص ٥١٥ .
[١٧] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٣٩ .

[١٨] – هاملتون جيب: **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة إحسان عباس، دار العلم للملايين بيروت، ط ٣ ،١٩٧٩ ص٢٩٦

[١٩] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٠

[٢٠] – ابراهيم ايوب : **التاريخ العباسي السياسي والحضاري** . دار الكتاب العربي، بيرزت – لبنان ، ط ١، ١٩٨٩ ، ص ٢٤٣

[٢١] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٠

[٢٢] – المرجع السابق ص ٤٤١

[٢٣] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤١

[٢٤] – ول ديورانت: **قصة الحضارة** ، ترجمة محمد بدران ج١٣ – ١٤ ص ١٦٩ . (ذكر في حضارة العراق ان فتح سمرقند كان عام ٧٠٥ م)

[٢٥] – ابراهيم ايوب : **التاريخ العباسي السياسي والحضاري** . دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، ط ١ ١٩٨٩ ، ص ٢٤٤

[٢٦] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٢

[٢٧] – ول ديورانت : **قصة الحضارة** ، ترجمة محمد بدران ج١٣ – ١٤ ، ص ١٧٠

[٢٨] – ابن خلدون : **المقدمة** ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط ٥ ، ١٩٨٢ . ص ٤٢١ – ٤٢٢

[٢٩] – ول ديورانت : **قصة الحضارة** ، ترجمة محمد بدران ج١٣ – ١٤ ، ص ١٧٠

[٣٠] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٣

[٣١] – المرجع نفسه، ص ٤٤٤

[٣٢] – القلقشندي : **صبح الاعشى** ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٨ ، ص ٥١٦

[٣٣] – المرجع نفسه، ص ٥١٦

[٣٤] – هاملتون جيب: **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣ ،١٩٧٩ ص٢٩٦

[٣٥] – عبد الستار الحلوجي: **المخطوط العربي**، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٩٧٨ ص ١٢٥

[٣٦] – اسامة ناصر النقشبندي: **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٢

[٣٧] – ابن خلدون: **المقدمة** ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط ٥ ، ١٩٨٢ . ص ٤٢١

[٣٨] – عبد الستار الحلوجي: **المخطوط العربي** مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٩٧٨ ص ١٢٥

[٣٩] – اسامة ناصر النقشبندي: **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٣

[٤٠] – ول ديورانت: **قصة الحضارة** ، ترجمة محمد بدران ج١٣ – ١٤ ، ص ١٧٠

[٤١] – احمد شلبي: **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية** ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧ ١٩٨٢ ، ص ٦٣

[٤٢] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ص ٤٤٣

[٤٣] – عبد الستار الحلوجي: **المخطوط العربي**، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٨ ص ١٢٩

[٤٤] – احمد شلبي: **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية**، ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧ ١٩٨٢ ، ص ١٦٦

[٤٥] – عبد الستار الحلوجي: **المخطوط العربي**، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٧٨ ص ١٣٠

[٤٦] – احمد شلبي : **موسوعة النظم والحضارة** الاسلامية ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧ ١٩٨٢ ، ص ٦٣

[٤٧] – عبد الستار الحلوجي : **المخطوط العربي** ، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٩٧٨ ص ١٣٠

[٤٨] – هاملتون جيب: **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٩ ص ٢٩٩

[٤٩] – عبد الستار الحلوجي: **المخطوط العربي** مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٩٧٨، ص ١٣٠

[٥٠] – احمد شلبي : **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية** ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧، ١٩٨٢ ، ص ٦٣

[٥١] – اسامة ناصر النقشبندي : **حضارة العراق** ج ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤٣

[٥٢] – احمد شلبي : **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية** ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧، ١٩٨٢ ، ص ٦٦

[٥٣] – عبد الستار الحلوجي: **المخطوط العربي**، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٨ ، ص ١٣١–١٣٣

[٥٤] – احمد شلبي : **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية** ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧ ١٩٨٢ ، ص ١٧٠

[٥٥] – القلقشندي : **صبح الاعشى** ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٧٨ ، ص ٥١٥ – ٥١٦

[٥٦] – ول ديورانت : **قصة الحضارة** ، ترجمة محمد بدران ج١٣ – ١٤ ، ص ١٧٠

[٥٧] – احمد شلبي : **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية** ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧ ١٩٨٢ ، ص ٦٤

[٥٨] – احمد شلبي : **موسوعة النظم والحضارة الاسلامية** ج٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ٧ ١٩٨٢ ، ص ٦٥

[٥٩] – المرجع السابق ص ١٤١

[٦٠] – ول ديورانت : **قصة الحضارة** ، ترجمة محمد بدران ج١٣ – ١٤ ، ص ١٧١ .